أسطورة مشروع غزو موحدي لمصر الفاطمية[1]

عبد الإله بنمليح*

إلى المؤرخ الكبير، أستاذي محمود إسماعيل عبد الرازق أمد الله في عمره

عرّف غوستاف لوبون(Gustave LEBON) "الوجدية"، وهي الترجمة العربية لكلمة Illusion، بقوله: «**تقوم الوجدية على الخضوع لأوهام بالغة من القوة ما تنفلت معه من سلطان العقل. وتاريخ البشرية هو تاريخ هذه الأوهام على الخصوص، وتنمو الأمة إذا ما حازت أوهاما دينية أو سياسية قادرة على تحريك جهودها، وهي تميل إلى الزوال عندما يأخذ سلطان هذه الأوهام في الذبول**»[2].

وإذا كان جورج أنطونيوس طربيه قد أنجز دراسة عن الوجدية ووجهها نحو المجتمع الأندلسي، وجعلها تستغرق «**كل ما هو أسطوري أو خرافي، وما يتصل بالجن والسحرة والمشعوذين، وما يتناول النجوم والحيوان وأثرها في التفاؤل والتشاؤم والنحوس والسعود، وما يتصل برؤى الليل وانعكاساتها على مسار الأفراد والجماعات، ونشأة الدول وانهيارها**»[3]، فإن الحاجة تظل ماسة إلى أن يتم تعميم مثل هذه الدراسات جغرافيا، لتشمل فضاءات أخرى من العالم الإسلامي، سعيا وراء إماطة اللثام عن مجموعة من القضايا المعقدة وتنقيتها مما اعتراها من خرافات وأساطير وأوهام، وسعيا وراء حقيقة لا يدعي أحد امتلاكها.

1- هذا المقال في أصله مداخلة شارك بها صاحبها في جلسة علمية نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي على هامش الدورة الرابعة والعشرين للمعرض الدولي للكتاب والنشر بالدار البيضاء، بتاريخ 16 فبراير 2018.

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس

2- غوستاف لوبون، **فلسفة التاريخ**، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، 1954، ص. 133.

3- جورج أنطونيوس طربيه، **الوجدية وأثرها في الأندلس**، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط.1، بيروت، 1983، ص. 12.

في هذا الإطار، تندرج هذه المساهمة التي تروم إلقاء الضوء على قضية، لا شك أنها شغلت الناس في زمانها، أي خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، تخص بصفة مباشرة العلاقات المغربية المصرية، موضوع هذه الجلسة العلمية، كما تروم تقديم قراءة جديدة لقصة مشروع غزو موحدي لمصر الفاطمية.

ولتحقيق ذلك ارتأينا أن نقوم بحصر الروايات/ المتون التي استندت إليها قراءتنا، قبل الانتقال إلى التقاط الإشارات الدالة فيها، وتسجيل ملاحظات وتعليقات عليها. ولم يكن اختيارنا لهذه النصوص اعتباطيا أو انتقائيا، وإنما راعينا كونها نصوصا أصيلة، ثم تناقل المصادر اللاحقة لها، ثم تداولها بين أقلام الباحثين العاصرين، وإن بدرجات متفاوتة.

يتعلق الأمر بخمسة نصوص مقتبسة من أربعة مصادر:

- كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب" للبيذق،
- كتاب "**نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**" لابن القطان،
- كتاب "رحلة ابن جبير"،
- كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي.

1 – المتن الأول:

نص أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، وارد في كتابه: "**المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**"[1]، يقول فيه:

«باب ذكر أصحاب المهدي ببلاد مصر- عجّل الله تعالى بدخول هذا الأمر العزيز إليها. قال أبو القاسم المؤمن المصري[2] رحمه الله: أما رجاله وإخوانه رضي الله

1- تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971، ص. 28 – 30.

2- ينقل ابن القطان عن كتاب سماه **فضائل المهدي**، ولا يعرف عن هذا المؤلف شيء ولا عن كتابه، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص. 5.

عنهم فهم واحد وخمسون رجلا[1] من أهل الديار المذكورة، غير أن الرجال الذين آخوه في الله تعالى وعظّموه في سائر البلاد المصرية وكانوا له مثل أعضائه وجسده، سامعين لقوله محبين لأمره مؤمنين به مختارين صحبته مؤثرين لحقه معظمين لحرمته لما تبين حالهم اختار لهم الإقامة هنالك.

قال أبو القاسم المؤمن: فوجب الآن أن نذكر أسماءهم ونعرّف بمن آمن به رضي الله عنهم فنقول وبالله التوفيق عز وجل وبه نقتدر: إن أول من آمن به بالديار المصرية محمد بن عبد الظاهر الاخميمي، وعرفة بن جابر ويونس اللخمي... وخالص بن منجي، فهؤلاء الذين بادروا إليه رضي الله عنه من القبائل والعشائر وانقطعوا إليه بأنفسهم، ومالوا إليه وأحبوه بقلوبهم وآمنوا به وهم من أعيان بلادهم.

قال أبو القاسم وكان وليه ومحبه في الله تعالى الفقيه الحضرمي رحمه الله؛ قال وقدّم الإمام المهدي رضي الله عنه فضل بن رشاد وحسين بن جناح الحلبي، وعبد الله بن فتح المكي، هؤلاء رجاله وخدامه الذين هم بالديار المصرية والرباطات الشامية.

قال أبو بكر[2] : وإنما أتيت بهذه الجماعة الذين صحبوا المهدي رضي الله عنه بتلك الديار وإن كنت ألفيت بعضها مصورا، لأبين كونه معروفا مشرقا ومغربا، وإنما حُرم منه من سُلب التوفيق والإيمان وأفضت به شقوته إلى الخسارة والكفر».

تعليقات:

- حل ابن تومرت بمصر في طريق رحلته المشرقية، وحضر بالإسكندرية دروس الفقيه الشهير أبي بكر الطرطوشي [المتوفى سنة 521هـ/ 1127م]، ويرجح عدم نزوله بالقاهرة[3].

1- الصواب 50 رجلا فقط، انظر أسماءهم لدى ابن القطان، مصدر سابق، ص. 28 – 29.

2- يقصد مؤلف الكتاب أبو بكر بن علي الصنهاجي.

3- انظر عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت: حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص. 69.

- توقّف ابن تومرت بمصر في رحلة عودته حوالي سنة 511هـ/ 1117م، وقضى بالإسكندرية شهورا قليلة، بعدما تم طرده من عدة مدن قبلها. ولا يستبعد أن توقفه هذا أثمر «**بعض المعجبين والمحبين ذكر أبو القاسم أسماء عدد كبير منهم، يريد أن يُظهر التأثير المبكر لدعوة ابن تومرت ويبين كونه معروفا مشرقا ومغربا**»[1].
- أثرت دروس أبي بكر الطرطوشي في موضوع الحوادث والبدع في نفسية ابن تومرت، فندب نفسه للتصدي لها في المدينة نفسها، مما أدى به إلى النفي منها[2].
- لا يجادل أحد أننا أمام نص ذي ملمح منقبي وليس نصا تاريخيا، وهو منقول في جوهره عن كاتب مصري مغمور، يرجح أن يكون أحد المعجبين بابن تومرت.
- يدعو اختيار ابن تومرت لأصحابه الخمسين الإقامة بمصر إلى الاستغراب والشك، فكيف له ذلك وهو الذي خرج منها منفيا !!
- يصرح البيذق أن الغرض الحقيقي من إثباته أسماء أصحاب ابن تومرت بمصر هو أن يبين «**كونه معروفا مشرقا ومغربا**».
- تظل هوية أبي القاسم المؤمن المصري غامضة، فقد صرح محقق كتاب نظم الجمان أنه لا يُعرف شيء عنه، وأضاف أن المؤرخ الفرنسي إ. ليفي بروفنسال «**في تعليقه على الترجمة الفرنسية للكتاب[ص ص46-47] شك في صحة الأسماء التي ذكرها أبو القاسم المؤمن، ورجح أنها مختلقة**»[3].

ولأجل كل هذا وذاك، جاء اقتراحنا عنوانا للنص كما يلي: أمنية بلوغ الدعوة التومرتية البلاد المصرية، وبيان شهرة صاحبها خارج المغرب.

2 - المتن الثاني:

نص أبي محمد حسن بن علي ابن القطان، وارد في كتابه: "**نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**"[4] [منتصف القرن 7هـ]، يذكر فيه، تعليقا منه على تطور

1- نفسه، ص. 86.

2- نفسه، ص. 87.

3- انظر مقدمة تحقيق كتاب **نظم الجمان**، الهامش رقم 4، ص. 62.

4- مصدر سابق، ص. 221.

الأحداث في مصر حوالي سنة 532هـ، وخاصة تعدد حالات الاغتيالات في صفوف الأسرة الفاطمية الحاكمة، كما يلي:

« فانظر إلى هذه المحاولات الشنيعة والأمور الفظيعة .. يبّن لك من ذلك ما كان في الأرض من ظلمات المظالم وانتهاك المحارم والخروج عن مراسم السنة وحدودها، وتنكب تلك الفئات عن الحق وصدودها، وذلك من حين وفاة المهدي رضي الله تعالى عنه إلى حين ظهور أمر الموحدين أعزهم الله تعالى، واتساق كلمة الأمر المطاع العالي، المخصوص بالمكارم والمعالي، فتحقق بذلك صدق البشارة النبوية الكريمة بهذه الخلافة المهدية القويمة، القائمة بأمر الله تعالى وإحياء كلمته، وإعلاء الحق وهداية أمته، وكم برهان قاطع ودليل ساطع، أبرزه الوجود، فتحصل منه العلم اليقين المقصود، والحمد لله رب العالمين، والله سبحانه يعلي مناره، ويديم بالخلافة المؤمنية المرتضية ضياءه وأنواره، إلى يوم الدين».

وحق لأحد الباحثين، وهو يقرأ هذه الفقرات القول إن ابن القطان يعقد **«مقارنة بين الخلافتين الفاطمية بمساوئها، والموحدية بمحاسنها، يخرج منها بنتيجة واحدة وهي أن الخلافة الموحدية هي أجدر الخلافات بحكم العالم الإسلامي»**[1].

وتكشف صلة كل من ابن القطان الأب والابن بالخلفاء الموحدين، عن الخلفية التي تصدر عنها مثل هذه الأحكام والميولات، فقد كان ابن القطان الأب على علاقة وطيدة بالخليفة يعقوب المنصور (580 – 595هـ / 1184 – 1198م) الذي كان أول من قربه وأحظاه، ولقي لدى ابنه الخليفة محمد الناصر(595 – 610هـ / 1198 – 1213م) الحظوة ذاتها، وهو ما استمر مع ابنه الخليفة يوسف المستنصر (610 – 620هـ / 1213 – 1223م) ردحا من الزمن. وكان رأس طبقة الطلبة بمراكش، وهي مكانة علية في الترتيب الإداري - السياسي الموحدي، استمرت حوالي 40 سنة. أما ابن القطان الابن، صاحب المتن أعلاه، فقد سار على خطى والده، وتواصلت صلته بالخليفة

1- حسن خضيري أحمد، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362- 567هـ/ 973 – 1171م)**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص. 90- 91.

الموحدي عمر المرتضى(646 – 665هـ / 1248 – 1266م)، في ظروف شهدت استفحال تصدع الدولة الموحدية[1].

لذلك لن نجد عناءً في وسم هذه الفقرات بكونها دعاية سياسية مغلفة بمسوح دينية، يراد توظيفها لخدمة الدولة الموحدية ليس إلا. ومن هنا كان مقترحنا وضعها تحت العنوان التالي: استحضار مصر الفاطمية عرضا لخدمة هدف دعائي محض.

3 – المتن الثالث:

نص ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، من كتابه الموسوم: "**رحلة ابن جبير**"[2]، الوارد فيه ما يلي:

«والقنطرة متصلة بالصحراء التي يُفضى منها إلى الإسكندرية، له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الخَدَمة، إعدادا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل انغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر به، فأعد ذلك مسلكا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك. والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوضع ومحذور بمنه.

ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية، والله أعلم بغيبه، لا إله سواه.»

تعليقات:

- يؤرخ النص لفترة ما بعد سقوط الخلافة الفاطمية بأكثر من عشر سنوات، وبالضبط سنة 578هـ/ 1182م؛

- دامت رحلة ابن جبير المشرقية ثلاث سنوات، من شوال 578هـ/ 1182م إلى 581هـ/ 1185م؛

1- انظر عن هذا الموضوع مقدمة تحقيق الكتاب، ص. 9 – 32 .

2- دار صادر، بيروت، د.ت.، ص. 27 – 28.

- يتألف النص من فقرتين: الأولى تهم تدبير السلطان صلاح الدين الأيوبي المتمثل في بناء قنطرة احترازية لأي طارئ، وتخص الثانية اعتقاد أهل مصر- وليس صاحب الرحلة؛

- وفضلا عن مضمون الرواية، يعبر السياق الذي وردت فيه عن مصداقية القول إن الأمر يتعلق بمجرد أصداء عن الخلافة الموحدية، ظلت عالقة بأذهان المصريين، فقد كانت الرواية ضمن سياق تعداد مفاخر سلطان مصر آنئذ: صلاح الدين الأيوبي، ومنها: «**المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة، يسكنونه ويحلقون**[1] **فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر. ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يدا لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم ما كانوا يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذين هم بسبيله**»[2].

- يتعلق الأمر بنص يفيض إعجابا وإشادة واعترافا، مقتبس من مصدر موثوق به «**ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم**» حسب تعبيره. ويقابل ذلك في النص السابق: «**ولأهل مصر- (...) يرون (...) والله أعلم بغيبه، لا إله سواه**»، وفي الروايتين معا مسافة بين الخبر وناقليه، لم يتردد صاحب الرحلة في اتخاذ موقف واضح منه ومن مصداقيته.

- ويلي قصة القنطرة استمرار الرحالة ابن جبير في سرد عظمة مصر- ممثلة في «**الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر، المربعة الشكل**»[3].

والخلاصة أن النص الذي اعتمدناه بريء مما قد ينسبه بعضهم إلى صاحبه، وما استحضار رواية أهل مصر- للموحدين، إلا من باب الجوار في الغرب من بلادهم، خصوصا بعد أفول دولة الخلافة الفاطمية.

1- يقصد عقد حلقات الدرس.

2- نفسه، ص. 26 – 27.

3- نفسه، ص. 28.

ومما سبق نستوحي عنوانا للمتن التالي، هو: ذكرى الخلافة الموحدية بين أهل مصر عقب زوال الخلافة الفاطمية.

4 – المتن الرابع:

نص ثان لابن جبير، تم التركيز عليه في القول برسوخ فكرة غزو الموحدين لمصر، وقد جاء تحت عنوان من وضع الناشر: «**لا إسلام إلا في المغرب**»[1]، مقتبسا من النص، مما يحيل على الطابع الديني للرواية، باعتبارها تستهدف البدع والمنكرات، لا الدولة الفاطمية، التي كان أمرها قد انتهى إلى الزوال منذ 10 أو 11 سنة؛ كما أن النص يقدم البديل المحمود وهو العدل السائد في دولة الخلافة الموحدية.

ولندع النص يعبر عن ذلك:

«وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أن لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بُنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها. كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين، أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة، يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من الظلم لم يُسمع بمثلها، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين، الذي قد ذكرنا سيرته ومناقبه، لو كان له أعوان على الحق .. (كذا) مما أريد الله عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه.

ومن عجيب ما شاهدناه في أمر الدعوة المؤمنية الموحدية وانتشار كلمتها بهذه البلاد، واستشعار أهلها لمَلَكتها أن أكثر أهلها بل الكل منهم يرمزون بذلك رمزا خفيا، حتى يؤدي بهم ذلك إلى التصريح، وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن فعاينوها صحيحة.

1- نفسه، ص. 55.

فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقي البناء، على أحدهما تمثال ناظر إلى جهة المغرب، وكان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق، فكانوا يرون أن أحدهما إذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة لتي كان ناظرا إليها على ديار مصر وسواها. وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر إلى المشرق فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد. وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربي وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم إن شاء الله.

ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صبحا جليا، ويقطعون بصحتها، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في إنجاز وعدها. شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعا أمرا غريبا يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق ودعوته الصدق. ونُمي إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حبّر خُطبا أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين، أعلى الله أمره، وهو يرتقب ذلك اليومَ ارتقاب يوم السعادة، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة، والله عز وجل يبسطها من كلمة، ويعليها من دعوة، إنه على ما يشاء قدير»[1].

تعليقات:

- غياب الإشارة إلى مصر، فقد اكتفى النص بالتعميم، فاستعمل الجهات الشرقية. ويؤكد ذلك مسار الرحالة ابن جبير، الذي دون هذه الفقرات وقد حل بالديار الحجازية حين أثارته معاملة أهلها واستغلالهم التجار والمسافرين.

- إشارة دالة إلى ما كان يلحق التجار من عسف وظلم، تكشف عن البعد الاقتصادي والاجتماعي الذي يؤطر نظرة المغربي إلى المشرقي، أما الدين فليس سوى غطاء يتقرب به إلى الأذهان كما جرت بذلك العادة.

- يظهر النص الوضع الحرج لبلاد مصر بين الغز من الناحية الشرقية والموحدين من الناحية الغربية. ثم إن الأمر يحيل أيضا على الصدام بين الأتراك، أي الغز أو

1- نفسه، ص. 55 - 57.

الأغزاز، والموحدين على تخوم مصر الغربية، التي ظلت جبهة مشتعلة بفعل تحالف ثلاثي مناوئ للخلافة الموحدية، يضم الغز وبني غانية والعرب الهلالية[1].

- وعلى الرغم من التعليقات الثلاثة السابقة فإن روح النص تذهب في اتجاه أحادي يخدم الخلافة الموحدية أساسا. بل إن الأمر بلغ برحالتنا حدا يجعلنا نقابل بين ترقب أهل مصر لليوم الآخر وترقب الخليفة الموحدي للسعادة، بشكل يوحي باتفاق الطرفين !

والخلاصة أن المتن الرابع أعلاه لا يعبر سوى عن استمرار رفع لواء محاربة البدع والمناكر والملاهي، الذي حمله داعية الموحدين المهدي بن تومرت، قبل حوالي 70 سنة، وهو الشعار الذي كان يرفعه كلما حل ببلد في المشرق والمغرب وهو في طريق عودته، بغرض لفت الانتباه إليه. وما إحياء الخلفاء الموحدين لهذا الشعار إلا بهدف صرف النظر عن مشاكلهم الداخلية، والإيحاء بالرجوع إلى تعاليم الزعيم الروحي. وهذا ما يتيح لنا وضع عنوان يتفق مع مضامين النص وخلفياته، هو: ابن جبير ينصب نفسه داعية يكرر ابن تومرت.

5 – المتن الخامس:

نص عبد الواحد المراكشي المثبت في كتابه: **"المعجب في تلخيص أخبار المغرب"**[2]، ورد فيه عن الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور (580 – 595هـ / 1184 – 1198م):

«فبلغني عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق[3]، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع، ويقول: نحن إن شاء الله مُطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات»[1].

1- انظر عن هذا الموضوع، عز الدين عمر موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص. 51 و 224 – 226.

2- تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط.7، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1978.

3- تحمل هذه الإشارة دلالة خاصة، باعتبار أنها تحيل على أسطورة أخرى تتحدث عن رحلة الخليفة يعقوب المنصور إلى المشرق، ووفاته هناك. انظر عن الموضوع: مقال الأستاذ محمد زنيبر، "حفريات عن شخصية يعقوب المنصور"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط**، العدد التاسع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،

تعليقات:

- نص مقتضب لكنه يرتقي إلى درجة الحديث عن عزم رأس هرم الدولة الموحدية: الخليفة يعقوب المنصور على غزو مصر، ويردد الفكرة ذاتها أي تحت غطاء إعلان الحرب، ليس على الدولة الفاطمية، وقد اختفت منذ سنوات، وإنما على المناكر والبدع، وهو ما يتقاطع فيه مع نص ابن جبير السابق الذكر.

- يظل مصدر الخبر غامضا : «**بلغني عن غير واحد**» !

- يبرز السياق العام لظروف المغرب خلال فترة الخليفة الموحدي يعقوب المنصور أن الأمر لا يتعدى فكرة مستعادة، ومعدة للاستهلاك المحلي، بلغة عصرنا. لم يكن للخليفة أن يفرط فيها، وفي شعارات الدولة منذ زمن المهدي بن تومرت، وعلى رأسها الرغبة في القضاء على البدع والمناكر في مغرب البلاد الإسلامية ومشرقها على حد سواء، مما اعتُبر من مسؤوليات الخليفة أمير المؤمنين.

وإذا كان المجال يضيق عن استحضار ظروف الخلافة الموحدية في المغرب و الأندلس، فإن العناوين البارزة لهذه المرحلة، كما سنلاحظ، كانت تُبعد السلطة السياسية عن قيادة مشروع عسكري بهذا الحجم، لما يتطلبه من إمكانيات مادية وبشرية ولوجستيكية ضخمة. ويمكن حصر هذه المحطات في ثلاث جبهات:

1 – الجبهة الأندلسية حيث النشاط العسكري المستمر للإسبان وتأثيره في الوجود الموحدي بها[2]؛

2 – الجبهة الشرقية حيث قضت مضاجع الموحدين حركة بني غانية وتحالفها مع العرب الهلالية والغز، ومحاولات الخلافة استمالة أحد أطراف هذا التكتل، واستعماله ورقة ضاغطة تجاه الشرق؛

3 – الجبهة المغربية حيث منازعة بيت الأسرة الموحدية الحاكمة للخليفة يعقوب المنصور، التي انتهت بقتل أخويه أبي حفص عمر الملقب بالرشيد وأبي يحيى، وعمه أبي الربيع سليمان[1].

1982، ص. 23 - 52. ثم كتاب الأستاذ إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ط. 2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984، ج1، ص. 280.

1- عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص. 407.

2- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج.1، ص ص. 277 - 279.

وطبيعي أن انشغالات كهذه كانت تُقعد الخلافة الموحدية عن مغامرة قيادة مشروع عسكري ضخم هو غزو مصر، وعدم تجاوز الوازع الدعائي إلى التنفيذ. وهو ما يوصلنا إلى طرح التساؤل التالي: ما الفائدة من هذا المشروع ذي التكلفة الباهضة؟

وحق لنا بعد كل هذا وذاك أن نضع عنوانا مناسبا للمتن الخامس والأخير، وهو: عزم بطعم أمنية تبخرت.

خاتمة:

إن ما بين أمنية البيذق في بلوغ الدعوة التومرتية بلاد مصر، وبيان شهرة صاحبها خارج المغرب [المتن الأول] وبين تبخر هذه الأمنية بوفاة الخليفة الموحدي الثالث يعقوب المنصور، في رواية المراكشي [**المتن الخامس**] خيط ناظم، ينتظم فيه كل من استحضار البلاد المصرية خدمة لدعاية سياسية ليس إلا، في رواية ابن القطان [**المتن الثاني**]، وأصداء الخلافة الموحدية بعد زوال الخلافة الفاطمية بمصر، في رواية ابن جبير الأولى [**المتن الثالث**]، وتربع الرحالة نفسه، في روايته الثانية، على منبر الدعوة، مختصرا المسافة الزمنية بينه وبين ابن تومرت الزعيم الروحي للموحدين [**المتن الرابع**].

إن ورود هذه الروايات الخمس ضمن كتابات تسبح في فلك الخلافة الموحدية وتتحدث باسمها، ينزع عنها مصداقيتها وينحو بها منحى دعائي صرف. مصداق ذلك ما تحفل به المصادر ذاتها، وغيرها كثير، من معلومات وإشارات عن علاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية وروحية بين مصر والمغرب خلال الفترة الفاطمية.

وتكشف دراسات عديدة عن جوانب من هذه الحركية العامة بين الإقليمين، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب الأستاذ حسن خضيري أحمد بعنوان: "**علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**"؛ ومقال الأستاذ محمد العربي الخطابي بعنوان: "**مصر والمغرب: خواطر وذكريات**"[2].

واللافت في العملين يسر الوقوف على حقيقة التواصل المصري المغربي؛ لذلك لا تعدو النصوص الدعائية أن تكون مجرد "أساطير" مؤسسة لشرعية الخلافة القائمة ومعبرة عن ذهنية مزدوجة: ذهنية صانعة للحدث وذهنية متلقية للحدث ذاته، في شبه تواطؤ. ومن هنا جاء وسمنا لعنوان هذه المشاركة: "**أسطورة مشروع غزو موحدي لمصر الفاطمية**".

1- محمد زنيبر، "حفريات..."، ص. 49؛ إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج.1، ص. 275.

2- مجلة **دعوة الحق**، العدد 233، دجنبر، 1983.